حوارات

الأزمة الأخلاقية المعاصرة والبحث عن أسس بديلة:

نحو إحياء خطوط منسية في الموروث الأخلاقي الإسلامي

حوار مع الدكتور:

عبد الرزاق بلعقروز

مركز نهوض
للدراسات والبحوث

جميع الحقوق محفوظة 2023

All rights reserved © 2023

الأزمة الأخلاقيـة المعاصرة والبحث عن أســس بديلــة:

نحـو إحياء خطوط منسـية في المـوروث الأخلاقــي الإسـلامي

حوار مع الدكتور عبد الرزاق بلعقروز

مركز نهوض
للدراسات والبحوث

الدكتور عبد الرزاق بلعقروز: الأستاذ المحاضر في فلسفة القيم والمعرفة في جامعة سطيف 2 - الجزائر، ومؤلِّف جملة من الأعمال في مجال فلسفة الأخلاق والقيم والمعرفة، يسرّنا في مركز نهوض أن تشاركنا في هذه الحوار، الذي يدور حول الأخلاق الإسلامية في عصر ما بعد الأخلاق"، ويتناول جذور أزمة القيم المعاصرة ومظاهرها والاجتهادات الفلسفية لدرء آفاتها، وآفاق الاستفادة من التراث الروحي والأخلاقي الإسلامي لعلاج الأعطاب الأخلاقية للحداثة.

نهوض: لنبدأ بتوصيف الأزمة الأخلاقية المعاصرة، فقد كثر الحديث عن عصر ما بعد الأخلاق بمعانٍ مختلفة، فمن الدارسين مَن يتحدَّث عن نهاية قدرة الأخلاق على الإلزام، وهو الركن الركين في أي نظام أخلاقي، ومن ثَمَّ دخول الأخلاق في حالة من النسبية الذاتية والسيولة المعيارية، ومنهم مَن يتحدَّث عن سيادة النرجسية والمُتعوية وانتصار مذاهب اللذَّة على مذاهب المسؤولية، ومنهم مَن يتحدَّث عن تضخُّم الفردانية الأنانية وغياب الأبعاد الجماعية. وفي السياق نفسه، برزت في الكتابات النقدية جملةٌ من التوصيفات لصيغ العيش الإنساني المعاصر، مثل: الإنسان السائل، والإنسان الأجوف، والإنسان ذو البُعْد الواحد. كيف تقرأ المشهد الأخلاقي المعاصر؟ وهل تمثِّل هذه التوصيفات المختلفة مظاهرَ لأزمة واحدة؟

بلعقروز: بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على الصَّادق الأمين، شكرًا لكم في البداية على هذا الحوار التفاعلي حول موضوعات حيَّة في الفكر الفلسفي المعاصر، ومنها موضوع الأخلاق، الذي يختصُّ بسِمة: أنه ليس مبحثًا نظريًّا خالصًا مثل الأجزاء الأخرى من الفلسفة، كالمنطق أو فلسفة اللغة؛ بل هو فضلًا عن كونه من أجزاء المنطق العملي، من صميم الأشياء التي تسكن في مسالك الفعل والصُّورة التي تلامس معنى الحياة الخيّرة، إنه أشدُّ التصاقًا بفلسفة الحياة وكيفية العيش، ومن ثَمَّ فمبحث الأخلاق ليس خيارًا يجري رفضه أو قبوله، إنه ضرورة ولازمة من لوازم الحياة بالمعنى الفردي والجماعي، فأن ترفض التفكير المنطقي شيء، لكنك لا تقدر على رفض رؤية أخلاقية تكون صيغة من صيغ الوجود الأخلاقي للإنسان.

وإذ تعيَّنت قيمة الأخلاق، فإننا نكتفي بهذا ونتجه إلى صميم السؤال، ومن السؤال نبني طبيعة الإجابة عن هذا القلق. إن الأزمة الأخلاقية المعاصرة هي أزمة مزدوجة: نظرية وعملية، فالنظرية تتبيَّن غالبًا في الهجوم على مصادر الإلزام المتعالية، وفي طليعتها الدينية والعقلية؛ ذلك أن من سمات مصادر التأسيس الأخلاقي هذا الطَّابع الكلي والإلزامي، فهي ليست من أجل الجماعات الضيقة أو الأقوام؛ وإنما تخاطب الأنا الإنساني في كليته؛ لأن في الإنسان شيئًا مشتركًا هو الكُلي الأخلاقي أو الروحي، وهي إلزامية بمعنى تلزم السُّلوك أن

يـأتي بمـا تطلبـه، فـشرط أخلاقيـة الأخـلاق هـو الإلـزام، ومَـن لا التـزام لـه في سـلوكه، لا صـلاح لـه في حياتـه الأولى وحياتـه الثانيـة، فاللـه أعطـى الشَّرائـع للبـشر، ثـم مـا لبـث الإنسـان الغـربي أن بلـور شرائـع أخلاقيـة أخـرى، لكنهـا شرائـع أيضًـا، كُليـة وإلزاميـة، ومثالهـا الأسـطع عـلى هـذا هـو الفيلسـوف الألمـاني إيمانويـل كانـط (1724-1804م) الـذي رأى أن الأخـلاق ينبغـي أن تكـون مسـتقلة عـن أيـة مصـادر أخـرى غـير إنسـانية، وهـذا الاسـتقلال إنمـا هـو المظهـر الـذي بانـت بـه الحداثـة في مجالهـا الأخلاقـي. فأصبـح قانـون الواجـب هـو الـذي يرسـم مُـبرّر الأحـكام الأخلاقيـة ويعـيّن مصدرهـا في العقـل.

لكـن بعـد هـذا التأسـيس الـذي دافـع عـن فكـرة الاسـتقلال، فإنـه لم يحـظَ بالترحـاب الـكُلي فيـما بعـد، فالعـصر الفلسـفي الـذي جـاء بعـد كانـط في صميمـه محـاولات للتخلُّـص مـن نسـقه الفلسـفي ومـن أوامـره الأخلاقيـة، إن عـصر مـا بعـد الحداثـة هـو رغبـة جامحـة لأجـل كـسرِ الإلـزام الأخلاقـي الـذي سـعى كانـط لغرسـه في العقـول والقلـوب. والمثـال الـذي نسـوقه هـو مواطنـه الفيلسـوف فريدريـك نيتشـه (1844-1900م)، الـذي دعـا في أنشـودته **"هكـذا تكلـم زرادشـت"** إلى أهميـة الثـورة عـلى ألـواح القِيـم القديمـة، وإبـداع ألـواح قيميـة جديـدة، ودعـا إلى إحـلال عبـارة "أنـا أريـد" محـلَّ عبـارة "يجـب عليـك". وتعنـي هـذه الفكـرة أن ليـس مـن سـلطان عـلى الإنسـان إلَّا مـا يريـده ويرغـب فيـه؛ فـالإرادة مفهومـة بمعنـى الرغبـة النزوعـة نحـو مشـتهياتها؛ هـي الأصـل في تعيـين قيـم الأشـياء وتحديـد مراتبهـا، وليـس العقـل المسـتقل أو الواجـب المنـزّه عـن الأغـراض هـو الـذي يرسـم لي صـورة الحيـاة الخـيّرة. ومـن ثَـمَّ فـإن فقـدان الأسـس العقليـة وإحـلال رغبـات الإرادة الجامحـة مـن الأسـباب العميقـة خلـف الأزمـة الأخلاقيـة المعـاصرة؛ لأن مـا هـو عقـليّ بالمعنـى الحديـث يعـادل مـا هـو كُليّ وإلزامـيّ وخـيّر، بينـما الإرادي يعـادل مـا هـو جـزئيّ وتحـرّري وجميـل، والفلسـفات الذاتيـة أو الفردانيـة إنمـا تغـذَّت عـلى هـذا الإقـرار الفلسـفي؛ وإذا كان البعـض يـرى في هـذا التحـوُّل تحـررًا للعقـل البـشري، إلا أنهـا مـن منظورنـا تعـبّر عـن أزمـة أو حالـة الدخـول في الأزمـة، فمـن يفقـد الأوامـر الإلزاميـة الإلهيـة يفقـد حتـمًا الأسـس الصلبـة ويفتـح أبـواب التفكـير الأخلاقـي عـلى اللاتأسـيس والسـيولة وفقـدان اليقـين، ولهـذا تتـداول في المباحـث الأخلاقيـة المعـاصرة مفـردات: غيـاب المعنـى ووتـيرة التغيـير والعدميـة ومـوت الأخـلاق؛ رغـم أن الإنسـان قـد راكـم إمكانيـات تقنيـة كبـيرة، إنهـا تتبـدّى لنـا في صـورة شـخص فَقَـد الوجهـة وبـات تائهًـا في الصحـراء، ولم تسـتطع تقنيتـه التـي تحيـط بـه مـن كل جانـب أن تنهـض بـه أو تأخـذ بيـده إلى مسـوغات حقيقيـة حـول الوجـود. وبنـاءً عـلى هـذا، فإنـه كلـما تكاثـرت المبـادئ الأخلاقيـة وهـي كثـيرة اليـوم، عـبَّرت هـذه الكـثرة عـن وجهـة غـير معلومـة، وعـن ضيـق في الرؤيـة إلى العـالم، التـي

باتت تابعة للذَّوق وليست تابعة لمبادئ أخرى.

إننا نبصر -بناءً على سؤالكم- انعطافة جذرية من المبدأ الأخلاقي "يجب عليك" إلى شيء آخر هو "أنا أريد"، وهذه الانعطافة هي المنبع الذي يغذي ظاهرة التنظيرات الأخلاقية الجديدة، وذلك بمعنيين: بمعنى إرساء الأخلاق في التعدُّدية وليس الكلية، وبمعنى خلق أخلاق جديدة هي في أسبابها تجلٍّ لأزمات محايثة لقضايا التقنية؛ فأن تتخلق ليس أن تغيِّر الذَّات وترتفع بها في معارج السلوك القويم، وإنما أن تكيِّف نفسك لمطالب التقنية ولأزمات الطب وإدارة الأعمال والتجارة والتعليم والسياسة وغيرها من جوانب الحياة، فالسمة الأخرى للأخلاق الجديدة أنها مشتقَّة من طبيعة المجال الاقتصادي الذي يرغب في تحقيق أكبر كسب وربح وكفاءة وفعالية، فدور الأخلاق هنا وظيفيٌّ أفقيٌّ محايث، بمعنى أنه بلغة تراثية بات من علوم الوسائل وليس من علوم الغايات، فالكفاءة والفعالية والربح ورفع الأرباح باتت هي الأُطر العامَّة التي يجري في ظلها إيجاد معانٍ أخلاقية للمؤسسات أو الشركات. وهذا ما زاد من سيولة الأخلاق، وزاد أيضًا من تقوية انفصالها عن المعاني الإنسانية التي لا تهدف إلى الربح فقط، وإنما لأجل تنمية القوى الروحية في جدلية تكاملية مع التنمية بمعناها الكُليّ.

نهوض: قدَّمت الحداثة في بواكيرها مجموعة من الفلسفات الأخلاقية الإنسانوية، وبشَّر فلاسفة عصر التنوير بظهور أخلاق عالمية عقلانية تقوم على التسامح والاعتراف والتعدُّدية واحترام الكرامة الإنسانية. لماذا أخفقت الحداثة في إنجاز وعودها الأخلاقية؟ وهل يكمُن الإشكال في ضعف الأساس الفلسفي الذي قامت عليه هذه الأخلاق؟ بعبارة أخرى، هل يعني هذا الفشل أن الأخلاق لا يمكن أن تقوم إلا على أساس ديني عميق؟

بلعقروز: إن المشكلة الجذرية التي لم تفهمها الحداثة الأخلاقية في مبادئها أنها تفرض نظريات فلسفية وأخلاقية تبتدئ دومًا من نقطة الصفر، وتنسى أنها وجهة نظر لا تفرض نفسها كوجهة نظر. وانطلاقًا من هذا، فإن صيغ المعاني الأخلاقية الإنسانية والتنويرية يمكن تفسيرها في ضوء هذه المقدمة، فالتسامح والاعتراف والتعدُّدية مقولات تُشع من الداخل فقط، وتحجب نفسها عندما يتعلق الأمر بالآخر، فالتسامح قيمة حداثية، يعني رفع التعارض بين الطوائف الأوروبية المتنازعة دينيًّا، واحترام الكرامة الإنسانية هو احترام كرامة الإنسان الغربي الذي يقع دومًا في منزلة الذات وغيره في دَرك الموضوعات، فهو دومًا بطل القصة أو الرواية التي يتوقف نسيجها كلها عليه. من هنا تأتي أسباب الفشل في الأخلاق العقلية الإنسانية، إنها ذاتية وتدَّعي الكونية، إنها في ممارستها الإيجابية هي لأجل الإنسان الغربي ولا وجود لفكرة الإنسان الإنساني؛ وهي في العلاقة مع الآخر الثقافي شِرْعَة من التسيُّد والاستباحة وحَلْب

الموارد الطبيعية والإنسانية. إن الفلسفة الأخلاقية التي تجد منبتها التأسيسي في الإرادة لا في العقل بالمعنى الذي شرحنا سابقًا، هي التي سوغت شرعية الصدام الثقافي والنزاع السياسي والصراع الاقتصادي بين الغرب الذي يتوهم أنه الذَّات المستقلة والعليمة، وبين الموضوعات التابعة استبداديًّا وليس علميًّا أو حضاريًّا لهذه الذَّات. لقد كانت شرعة إرادة القوة هي المبرر الواقعي والظاهر لأفعال الحداثة الأخلاقية؛ ذلك أن فهمها للأخلاق لا يكون في ضوء قيم الرحمة والعدالة والحوار والسلم والمحبة؛ بل ضمن القوة والحيوية واستعباد الآخرين، فالفضيلة هي الشعور بالزيادة في القوة، والرذيلة هي فتور هذا الشعور ووهن الإرادة. لقد قضت الاتجاهات الأخلاقية الإرادية على القيم الإنسانية النبيلة والرفيعة، بأن أبصرت فيها قيمًا بالية وقديمة وأدواتٍ لأجل التحكُّم في فيض القوة الحيوي، ونسيت أن القوة الحقيقية في الإنسان هي القوة الروحية التي تجعله مثالًا أخلاقيًّا ساميًا، وتجعله يفجر طاقته الروحية التي كَبتتها العقلانية، والقوة الروحية مثل الصبر والتواضع والنبل والإخلاص والصدق، لها معناها الحقيقي للقوة، إنها أخلاق تحرّر الإنسان من تربية الإنسان، وتدفع به كي يستفيق من الغفلة الأخلاقية التي تكمُن فيه، فالطاقة الأخلاقية الروحية التي تجد منبتها في الدين هي أحد المصادر العميقة لإعادة قوة القيمة بدلًا من قيمة القوة، فالقيمة هي قوام العلوم والإنسان.

نهوض: يمثِّل حقل فلسفة الأخلاق حقلًا ثريًّا تتجدَّد فيه الإسهامات من كبار الفلاسفة الغربيين. كيف تقرؤون آخر مستجدات هذا الحقل؟ وهل يمكن لهذه الجهود الفلسفية أن تقدِّم سبيلًا للخروج من عصر ما بعد الأخلاق أم أنها تنطلق من ذات الأرضية المعرفية والقيمية التي أنتجت الأزمة؟

بلعقروز: يشير الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس (1929-...) في نصِّه **"أخلاقيات الحوار"** إلى أن النقاش الأخلاقي المعاصر الذي يغذي الفلسفة العملية، إنما يتولَّد من مصادر ثلاثة: الأخلاقيات الأرسطية، والنزعة النفعية، ونظرية الأخلاق الكانطية. لكن يبدو لي أن المصدر المنسيَّ ضمن هذا التصنيف هو الأخلاق عند نيتشه، التي تعادل التأويل الجمالي للوجود. قد تكون المصادر التي ذكرها هابرماس قريبةً من النقاش النظري، لكنها بعيدة نسبيًّا عن الواقع العملي؛ لأن الغاية النهائية للمجتمعات الحديثة -كما حلَّل ذلك الفيلسوف وعالم الاجتماع جيل ليبوفتسكي (1944-...)- إنما هي المُتعية والنرجسية، أو التلبية الفورية للرغبات وخصخصة الحياة الاجتماعية. ولأجل هذا، فإن الفعل الأخلاقي الساري في الحياة أكثر قربًا من هذه المعاني، فهو وجود أخلاقي ينفر من فكرة الإلزام مهما كان مأتاه، إلا الإلزام الذي

يلبي الرغبات النفسية، حيث تستحوذ من جديد الغريزة على لطافة الروح أو ضوابط العقل.

إن مستجدات فلسفة الأخلاق في اتجاهاتها هي نقد وتحرُّر من فكرة الإلزام أو الأوامر التي تريد أن تأخذ بالإنسان نحو سرديات أخرى، مثل سردية التحرُّر أو صراع الطبقات أو التقدُّم نحو الأفضل، إن الأخلاق الجديدة هي أخلاق التأويل الجمالي للوجود، وأخلاق الإخلاد إلى تلبية قوى الغريزة؛ الغريزة مفهومة بالمعنى النفسي والتحرُّري والخاص؛ لقد انتهت أزمة رسم مُثُل عليا يهتدي بها السلوك، فقد حلَّت محلَّها مُثُل سفلى أو أرضية محايثة لمطالب الكائن الذي يعيش على هذه الأرض، وبما أن تحقيق هذه المُثل يبدو من منظور هذه الاتجاهات غير ممكن، فإن الحل إنما يكمُن في تأكيد قيمة الحياة والجسد والجمال، فالإيمان باستحالة الفعل الأخلاقي ليس له من ثمرة إلا توجُّه الذات نحو الإقبال على الشهوات وإدمان الغرائز والميل إلى ما توجبه الطباع لا إلى ما يوجه الدين أو العقل.

لكن ثمة تنظيرات تحاول أن تتغلَّب على الأزمة، لكنها تنظيرات جزئية وتعكس تركيزًا على أزمة جزئية كي تحاول أن تصوغ منها تنظيرًا أخلاقيًّا يلائم تلك الجزئية، فهي تنظيرات أخلاقية جزئية واستجابة لتحديات وأزمات واقعية، وعِلَّة هذا المنحى الجزئي في فلسفات الأخلاق المعاصرة أنها فَقَدت الرؤية الموحدة للعالم؛ لأنه من غير رؤية إلى العالم متناسقة بين مفاهيمها حول الإله والإنسان والكون ونظام القيم، تكون الخلاصة هي الانشطار والشظايا نحو جهات مختلفة وفي الغالب متعارضة. وإذا تبيَّن هذا، فمن النماذج السائدة من هذه النظريات الجزئية مبدأ المسؤولية للفيلسوف الألماني هانز يوناس (1903-1993م)، الذي دعا إلى إنشاء ميثاق أخلاقي جديد بين الإنسان والطبيعة، يوقف بموجبه هذا الاستنزاف الجنوني للطبيعة، وكما أنشأ الإنسان من قبل ميثاقًا اجتماعيًّا أنهى بموجبه حرب الكل ضد الكل، فإن يوناس قد استعار هذه الفكرة المتخيلة، كي يعيد زرعها من جديد من أجل ما اعتبره أخلاقًا لعلاج أزمة الحضارة التكنولوجية. وكما هو بائن، فإنها صدى لأزمة البيئة وتحديات التنمية المستدامة والمستقبلية. وثمة أيضًا أخلاق مبدأ الواقع الكافي، الذي لا يريد لأية مثاليات أو أوامر أخلاقية أن تقتلع الكائن من الواقع. ولأجل هذا، دعا رائد هذا الاتجاه -وهو كليمان روسيه (1939-2018م)- إلى تأكيد الواقع كما هو، معتبرًا أن الواقع قد ينفتح على الفرح، ولكن هذا الفرح ليس إلا الوجه الآخر المُرّ والغامض، إذن ما العمل؟ "افهموا الواقع، وافقوا عليه، ارضوا به...". وجليٌّ إذن -بعد هذا الأمر- أن كليمين روسيه يحذو حذو فيلسوف التشاؤم آرثر شوبنهاور الذي أقرَّ من قبل أن الذي يحكم العالم ليس هو العقل، بل هي الإرادة باعتبارها رغبة جامعة لا تعرف إلا تلبية مشتهياتها اللامتناهية.

ثمـة أيضًـا أخلاقيـات أخـرى للإشـكاليات الجزئيـة، منهـا أخـلاق الفعـل التواصـلي أو أخـلاق الحـوار، كـما بلورهـا هابرمـاس في العديـد مـن كتبـه، التـي تتخـذ مـن الأنمـوذج اللغـوي دليلهـا الإرشـادي لأجـل التفاهـم، فاللغـة هنـا مفهومـة بالمعنـى التـداولي عندمـا تتحقَّـق بجملـة مـن الافتراضـات والـشروط، مثـل الصـدق والصحَّـة والصلاحيـة والمسـؤولية، تكـون هـي الدليل الإرشـادي للعقـل المعـاصر كي يعالـج الأزمـات النفسـية والاجتماعيـة في الواقـع المعـاش. فاللغـة إذن هـي الأداة الحاسـمة والفعـل التواصـلي هـو الغايـة مـن الفضـاء العـام؛ لكـن هـذه النظريـة بدورهـا تعرضـت لانتقـادات كثـيرة، لأنهـا تتبنَّـى نظريـة مثاليـة عـن المعنـى، فالتغيـير والتواصـل والتفاهـم ليسـت مقـولات لغويـة تسـكن الحـروف وتؤثـر في الوعـي، بـل ثمـة تحديـات أخـرى ترتبـط بالإكراهـات الاجتماعيـة وطبيعـة الواقـع المعـاش البعيـد عـن أن يكـون مجـرد وعـاء يُنَظِّـر لـشروط اللغـة كي يتفاهـم ويتواصـل. وفضـلًا عـن هـذه النظريـة التواصليـة، فـإن ثمـة نظريـة أخـرى تواصلـت ضمـن سـير العقـل النقـدي لمدرسـة فرانكفـورت، هـي نظريـة أو أخـلاق الاعـتراف، ففـي ظـل مجتمعـات الاحتقـار والظلـم وسـلب الحقـوق، تـأتي فلسـفة الاعـتراف مبنيـة عـلى دعائـم ثـلاث: الحـب والتضامـن والقانـون، وبهـذه الثـلاث يمكـن أن نبنـي فلسـفة اجتماعيـة نقديـة يكـون فيهـا النطـاق المركـزي للأخـلاق وليـس للغـة كـما قـال هابرمـاس، إنهـا فلسـفة اجتماعيـة لا تكتفـي بالنقد البـارد للمجتمـع، بـل هـي شـكل علاجـيٌّ وتحـرريٌّ مـن هـذه الأمـراض، أو كـما يحلـو لمترجمينـا أن يحافظـوا عـلى صورتهـا اللفظيـة: الباثولوجيـات الاجتماعيـة. وقـد تعرضـت هـذه النظريـة بدورهـا لهجـوم شـديد رغـم رواجهـا العالمـي، فهـي بحسـب نانـسي فريـز نظريـة مفرطـة في اعتمادهـا عـلى التحليـل الثقـافي السـيكولوجي، فتحريـر الحيـاة الاجتماعيـة مـن الظلـم والاحتقـار وسـلب الحقـوق ليـس مسـألة قيمـة خالصـة: الحـب والتضامـن والقانـون، بـل هـي مسـألة مشروطـة بأبعـاد أخـرى، منهـا: مسـألة التوزيـع العـادل للـثروة، وتقسـيم الخـيرات الماديـة بالعـدل بـين النـاس.

لنقـل إذن إن الاتجاهـات الأخلاقيـة المعـاصرة -رغـم وجاهتهـا وحِسّـها النقـدي لأزمـات المجتمعـات المعـاصرة- جزئيـة وفاقـدة للرؤيـة الموحـدة إلى العـالم، فهـي في عمقهـا اسـتجابات لتحديـات ظرفيـة، وهنـا كان التلمُّـس النقـدي الجيـد للفيلسـوف الأمريـكي ألسـدير مكنتـير (1929-000) الـذي اعتـبر أن المـوروث الأخلاقـي الغـربي يعتمـد فكـرة الانتقـاء وليـس النظـرة النسـقية المترابطـة، فهـو داروينـي إذا كان في مواجهـة مـع المختلـف عنـه، وهـو مسـيحي في قيـم التسـامح والمسـاواة والمحبـة داخليًّـا، وهـو أبيقـوري عندمـا يتعلـق الأمـر بمسـألة الاسـتقلال الـذاتي الفكـري وتمجيـد الكـمال والنجـاح في الحيـاة وهكـذا.

نهـوض: تكـثر في الآونـة الأخـيرة كتـب "العيـش بالتفلسـف" و"فلسـفة العيـش"، وهـي أدبيـات

تسعى لتخفيف وطأة الأزمة الأخلاقية وتحصين الفرد من السقوط في حالة الشتات الأخلاقي والصراع النفسي في ظلِّ مجتمع السرعة والإنجاز الرأسمالي الذي نعيش فيه. تستقي هذه الأدبيات من مصادر مختلفة، بعضها من الفكر الرواقي، وبعضها من الديانات الشرقية التأمُّلية، وبعضها من فلسفات القوة والإرادة. برأيك، هل تستطيع هذه الأدبيات أن تخلِّص الإنسان المعاصر من أزمته الأخلاقية؟ أم أن دورها لا يعدو تسكين أعراض الأزمة والتخفيف من آثارها النفسية؟

بلعقروز: سؤال ذكي، يعكس متابعة لراهن التفلسف المعاصر، وبالفعل فإن ثمة إعادة بناء للفلسفة من حيث غايتها، فهي باتت أكثر قربًا إلى كُلوم الإنسان وأحواله النفسية وتفكير بلغة الفيلسوف العربي المسلم أبي يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي (185-256هـ/805-873م) في كيفية دفع الأحزان، فبعد أن تسيَّدت أخلاق التأويل الجمالي للوجود، ورافقت نهامة الإنسان في كسر الإلزامات الأخلاقية، إذا هي اليوم تعود من جديد إلى الذات، لكن ليس لأجل تحرير الغريزة وإطلاق الدوافع الحيوية والتلبية الفورية للرغبات، بل من أجل إعانة الإنسان على تدبير ذاته بالفلسفة، مفهومة بالمعنى الأخلاقي والعلاجي، لقد رسمت المناحي الفلسفية المعاصرة خطًّا للفلسفة بوصفها علاجًا للنفس، الفلسفة ليست نسقًا نظريًّا أو بنية استدلالية عقلية أو نظامًا معرفيًّا أو مساءلة إبستيمولوجية، إنها فنٌّ في أسلوب الحياة، ومصدرٌ لإمداد الذَّات الهشَّة بفنون عملية من أجل العلاجات النفسية، إن وظيفة الفلسفة كما تقول مارثا نوسباوم (1947-...) هي البُعْد العملي نحو الرأفة، إنها فلسفة توجد من أجل البشر، تتكفَّل بحاجياتهم العميقة، وتواجه حيرتهم العاجلة، ونقودهم من البؤس إلى مرحلة عليا من الازدهار.

وثمة مسميات عديدة تدور في فلك هذه النظرة الفلسفية، منها: العيش بالتفلسف أو أخلاق العناية أو الفلسفة والحياة، وغيرها من المفاهيم التي تشترك في خروجها عن حدود الأوامر الأخلاقية الكلية والقطعية خاصة الكانطية، كي تقترب أكثر من الانفعالات والأحزان واللامعنى وموت القيم والحياة التالفة بلغة تود سلون، إنها ليست فلسفة بأحكام قَبلية كلية عقلية، بل هي أقرب إلى الإرشاد وإصلاح الذات وتغيير الداخل وتذكير بالأنا الروحي العميق الذي حجبته الذَّات السطحية، وهنا استحال التفلسف إلى بُعْد تعليمي للأخلاق العملية والأكثر ملامسة للجوانب النفسية والعاطفية للإنسان، إنها مثل أخلاق ما بعد الواجب التي تبنَّت فكرة المُتعية والتلبية الفورية للرغبات، لكنها لا تسكن الغريزة النفسية الباحثة دومًا عن تواريخ نهاية صلاحية قيمة الأشياء، إنها تسكن هذا الألم النفسي والعذاب الداخلي الباحث

عـن دروب جديـدة للمعنـى والحيـاة. ويمكـن القـول إن هـذا الصنـف مـن التفلسـف قـد أعـاد حتى كتابـة الفلسـفة، وذلـك بتحريرهـا مـن قبضـة العقلانيـة وقبضـة البنـاء المنطقـي للعـالم، بـأن أضحـت الفلسـفة نوعًـا مـن التربيـة للـذات ومـن التغيـير للإنسـان ومـن التلاحـم الشـديد بينهـا وبـين الواقع، وجـرى إعـادة تأويـل النصـوص الفلسـفية بإسـكانها دومًـا ضمـن فلسـفة الفعـل والتغيـير والعـلاج. وهنـا انتصر مفهـوم الفيلسـوف الطبيـب الـذي زرعـه نيتشـه في تاريـخ الفلسـفة، الفيلسـوف هـو طبيـب الحضـارة والمعالـج لنظـام القيـم في العـصر الحديـث، فالقيـم باتـت لهـا القيمـة التـي كانـت لقيمـة مبحـث الوجـود والمعرفـة؛ ومنـذ أن أمسـكت نظريـة القيمـة بمباحـث الفلسـفة، أصبحـت قضايـا القيمـة الكـبرى مثـل: فلسـفة الديـن والفعـل والقداسـة والأخـلاق والسـعادة، هـي الأسـئلة المتصـدرة، نظـرًا لعجـز العلـوم النفسـية عـن تحقيـق مطالـب الإنسـان المعـاصر في الصحـة النفسـية والأمـن الوجـودي مـن جهـة، ومـن جهـة أخـرى أن العلـوم خاصـةً القريبـة مـن الـذات الإنسـانية (علـم النفـس والاجتـماع والتربيـة...) بسـبب عجزهـا -كـما أشرنـا- قـد حفـزت الفلسـفة كي تنطلـق وتسـتلم زمـام المبـادرة مـن جديـد؛ لأن الفلسـفة لا تجتـزئ مـن الإنسـان بعـدًا واحـدًا وترفعـه إلى رتبـة ادعـاء تفسـير كل شيء، مثـل التحليـل النفـسي أو التحليـل الأنثروبولوجـي أو غـيره، فهـي تسـتمع إلى الإنسـان في قلقِـه الـكُلي، تسـتمع لـه في رؤيتـه الأنطولوجيـة وطبيعـة المعرفـة التـي تعينـه عـلى تلبيـة حاجاتـه كلهـا، وقيمـه التـي تسـتجيب أيضًـا للمعـاني التكامليـة؛ لأن الحداثـة قـد دفعـت بالإنسـان إلى الانحصـار في القِيـم النفعيـة والوسـائلية، ولم ترتفـع بـه إلى مسـتوى القيـم الأخلاقيـة التـي هـي علَّـة الوجـود الإنسـاني.

هـذه هـي إذن سـياقات تحـوُّل التفلسـف مـن سـؤال العقـل إلى سـؤال الوجـدان والـروح، لكـن مـا يجـب لفـت الانتبـاه إليـه هـو أن هـذه المناحـي الفلسـفية العلاجيـة، مثلهـا مثـل فلسـفة الديـن السـائدة، ملتصقـة بالرؤيـة المسـيحية خاصـةً في الفضـاء المعـرفي الأوروبي، فـإذا كانـت فلسـفة الديـن -في جزئهـا الكبـير- هـي فلسـفة الديـن المسـيحية، فـإن العيـش بالتفلسـف هـو دعـوة إلى العيـش والعـلاج وتعليـم فنـون الرياضـات الروحيـة وفقًـا للمسـيحية أيضًـا، يقـول جـون غروندان في كتابـه **"فلسـفة الديـن"**: "مـن الصعـب ممارسـة فلسـفة الديـن دون افـتراض أن الأمـر يتعلَّـق بفلسـفة معيَّنـة في الديـن، والتـي لـن تتـلاءم إلا مـع شـكل مـن أشـكال الدّينـي الكثـيرة... بعبـارة صريحـة: إن المسـيحية قـد طبعـت بميسـمها -بدرجـة كبـيرة- الفلسـفة والتفكـير في الديـن، ومـا زالـت تؤثـر في أنمـاط التفكـير في الديـن، سـواء تـم الاعـتراف بذلـك أم لم يتـم". وهـذا الـرأي لجـون غروندان مـن وجهـة نظرنـا يترابـط مـع اتجـاه العيـش بالتفلسـف أيضًـا، فالتفلسـف سـواء في الديـن أم حـول مثـال الحيـاة الروحيـة، إنمـا ينغـرس في المعـاني الدينيـة المسـيحية، وهـذا الإقـرار لا ينفـي أن ثمـة

اتجاهات أخرى خارج هذا السياق، لكنها لمَّا كانت فنونًا في تهذيب النَّفْس، فإنها أكثر قربًا إلى المعاني الدينية. أما من حيث التقويم لهذا المنحى التفلسفي، فهو وإن عبَّر عن يقظة إنسانية جديدة، تعبِّر عن أن الوعي الإنساني يتسع أكثر لقضايا الروح والإرادة والمعاني والقيم، إلَّا أنه أعاد بناء التفلسف كما لو أنه رهبنة أخلاقية خالصة، وصدود عن الدوافع المادية في الإنسان، فهو أقرب إلى الانقلاب منه إلى وعي بالبنية التكاملية في الإنسان؛ وقد أسمينا هذا النوع من التفكير بالتفكير التقابلي، وهو مرض من أمراض التفكير؛ لأنه يحجب نصف الحقيقة دومًا. ولذا فعلى العقل الفلسفي الإنساني أن ينفتح على هذه الجوانب الروحية من التفلسف، لكن عليه أن ينفتح أكثر على البنية التكاملية التركيبية في الإنسان، في روحه وفي عقله وفي علمه أيضًا، ونحن في الفضاء الثقافي الإسلامي جديرون بأن يكون لنا النصيب الأوفى لتجديد الفلسفة الأخلاقية انطلاقًا من الموروث الثقافي العربي الإسلامي، الذي يُعَدُّ هو الأمتن ضمن هذا الاتجاه؛ لأنه كان على وعيٍ بهذا الطَّابع التكاملي وهذا الدَّور العلاجي للفلسفة، وفضلًا عن هذا، لم تكن المطالبة بالحق في العيش وَفق المعاني الإيمانية والأخلاقية مطالبة نظرية، بل هي مكابدة روحية وجهاد إرادي عملي، عبَّر فلسفيًّا عن معنى، أن الحقيقة لا تدرك فقط بالعلم والتصور، وإنما الجهاد الإرادي والاجتهاد الفكري هي أدوات متينة من أجل بلوغ اليقين وإصابة الصواب. إنها تجاربُ حيَّة وليست تفكيرًا في التجارب الحيَّة أو رسمًا نظريًّا لمسالكها، ومن ثَمَّ ففي الفضاء الثقافي الإسلامي خزائنُ أخلاقية جديرة بأن يجري إحياؤها وتجديدها وتكييفها تبعًا لحاجات الوعي الفلسفي المعاصر .

نهوض: قدَّمتم في كتابكم **"الاتصاف بالتفلسف: التربية الأخلاقية ومسالك المنهج"** نموذجًا مختلفًا في العيش بالتفلسف. ما الإضافة التي يمثِّلها كتابكم بين الأدبيات الغربية التي تناولت سؤال فلسفة العيش؟

بلعقروز: حاولت بالفعل في هذا الكتاب أن أسهم في رسم كيفية للعيش بالتفلسف، واخترت مفردة هي الاتصاف، خاصةً أن ابن خلدون قد أقرَّ من قبل أن كمال العلم في حصول الاتصاف به، أي إن العلم لا يُعَدُّ علمًا ما لم يستكمل البُعْد العملي، وتدور موضوعات هذا الكتاب المذكور على الأسئلة التالية:

- كيف يصبح الفكر تفكيرًا وتفكُّرًا؟
- كيف تصبح الفلسفة تفلسفًا؟
- كيف تصبح الأوامر الأخلاقية تخلُّقًا ووصفًا في السلوك باعثًا على الفعل والحركة

والتمكـين؟

حيـث إن ميـزة الإجابـة عـن هـذه التسـاؤلات إنمـا تكمُـن في طبيعـة المنهـج، فهـو منهـج تسـتبق فيـه القيـم الروحيـة تسـجيل حضورهـا قبـل الإجـراءات النظريـة والخطـوات العلميـة، إنهـا اهتـمام أوَّليٌّ بالقلـب قبـل العقـل؛ لأن العقـل في منظورنـا وفعاليتـه هـو تجـلٍّ مـن تجليـات أفعـال القلـب، وبقـدر مـا تقـوى أفعـال القلـب بقـدر مـا يكـون التفكـير والتفلسـف والتخلُّـق عـلى مثـال الحقيقـة العلميـة، فالمنهـج هنـا يشـترط الطاقـة الروحيـة وصفـاء النَّفْـس مـن أجـل ذكاء العقـل وجريـان الفكـر، فكانـت فصـول الكتـاب تـدور ضمـن هـذه المعـاني والقيـم. فالتفكـير كي يصـير تفكُّـرًا ويتحرَّر مـن أمـراض التفكـير لا بـدَّ لـه أن يتقـوى مـن القيـم الروحيـة، أي لا بـدَّ مـن أخـلاق الـروح لأجـل اسـتصفاء النفـس واسـتكداد الفكـر، ولا بـدَّ أيضًـا مـن تعليـم بعـض الفنـون أو التماريـن العلاجيـة مثـل: تعليـم اليقظـة، وتعليـم تربيـة النفـس، وتعليـم العـزم، وغيرهـا. والأمـر يـسري عـلى دائـرة التفلسـف الإبداعـي أيضًـا، فالمسـألة الأساسـية هـي مسـألة المنهـج، كيـف نخـرج مـن رتبـة اسـتقبال الفلسـفة إلى رتبـة صناعتهـا؟ فكانـت خطـوات الإجابـة هـي إتقـان المنهـج في صورتـه العلميـة اللسـانية، حيـث يكـون الدخـول إلى الفلسـفة مـن جهـة خارجيـة تمكِّـن مـن إتقـان التفلسـف، وليـس فقـط الانحصـار في التحليـل والاسـتقبال، كـما حاولنـا أيضًـا التواصـل الحـيّ والخـلّاق مـع موروثنـا الفلسـفي الزاخـرة خزانتـه بالأخـلاق، فـكان نمـوذج الأخـلاق المغـاربي ابـن عـربي، الـذي اهتـمَّ بكيفيـة التحصيـل السـلوكي لمـكارم الأخـلاق؛ وحاولنـا أن نقيـم تواصليـة فكريـة علاجيـة لمـا يعانيـه الإنسـان المعـاصر مـن تـأزُّم نفـسيّ وحـيرة روحيـة عـبَّرت عنهـا ثقافـة مـا بعـد الأخـلاق، التـي خرجـت بصـورة جذريـة عـن أوامـر الواجـب العقـلي، وباتـت معاييرهـا الخُلقيـة هـي الحقـوق الذاتيـة والرفاهيـة والسرعـة لأجـل التلبيـة الفوريـة للرغبـات؛ وهـذه الحـال مـن منظـور التحليـل الأخلاقـي الإسـلامي تعكـس غلبـة الطَّبْـع الإنسـاني وميـل الـذات نحـوه، وتسـيُّد الهـوى والغريـزة النفسـية عـلى الـروح الثاويـة خلـف هـذه الحجـب، لقـد احتجبـت الأنـا العميقـة -وهـي الـروح- بفعـل غلبـة الأنـا السـطحية، أي الجسـد والجـمال والمتعـة؛ وهنـا أصبـح الإنسـان في سـجن هـذه الأنـا السـطحية، مـن غـير أن يحقِّـق الغـرض الـذي مـن أجلـه أقبـل عليهـا، فـلا هـو حصـل عـلى مـراده مثـل السـعادة، ولا هـو اسـتطاع أن يتحـرَّر مـن سُـجون الجسـد والجـمال وملاحقـة اللَّذائـذ، وإدمـان الإنسـان المعـاصر للرغبـة ولتلبيـة دوافـع الغريـزة النفسـية ليـس لأنـه واجـد فيهـا سـعادته وإنمـا لأنهـا أصبحـت عـادة لـه يكررهـا بصـورة تكراريـة آليـة، تـكاد تخلـو مـن الوعـي ومـن الإرادة ومـن اليقظـة.

وهنـا حاولنـا أن نعيـد إحيـاء مفاهيـم أخلاقيـة روحيـة تخاطـب الـذات في وعيهـا العميـق،

وتشرح كيف أصبح العقل في مملكة الهوى والنفس، وترسم كيف تستعيد الروح مملكتها وتحرّر العقل من سلطان الغريزة النفسية، وفق خطوات عملية إيجابية. وبهذا حاولنا أن نشقَّ طريقًا في كيفية الاتصاف بالتفلسف موصول الجذر بروح الثقافة الإسلامية خاصةً في جزئها الأخلاقي، وما زال المشروع مستمرًّا في إحياء اتجاهات منسية في الفلسفة الأخلاقية الإسلامية، إذ الدراسات الاستشراقية أوهمتنا أن المباحث الأخلاقية الحقَّة هي تلك التي اتبعت أرسطو والمذاهب الأخلاقية، كمقدمة لنفي صفة الإبداع عنها، بينما القول الجدير بالحقيقة هو أننا في دائرة الفلسفة ما زلنا لم نلامس الفلسفة الأخلاقية الحقيقية، وهي الأقدر على تجاوز الترسيمات اليونانية قديمًا، والأقدر أيضًا على تمثيل الدور العلاجي معاصرًا؛ أقصد اتجاهات منسيَّة مثل جهود الراغب الأصفهاني والحارث المحاسبي وأبي الحسن العامري وابن عربي، فهذه المدرسة بقدر ما انفتحت عند البعض منها على الموروث اليوناني، بقدر ما شقَّت عصا الطاعة عنه، واستلهمت من الروح القرآنية الرؤية الأخلاقية. وفضلًا عن هذا الوعي، فإنها لم تكن تفكيرًا نظريًّا في الأخلاق، بل هي ممارسات أخلاقية رفيعة، أكَّدت إمكانية الفعل الأخلاقي وقدرة الإنسان على إحياء روحه وتفجير مكنونات عقله، بخلاف بعض الاتجاهات المسيحية التي قالت باستحالة الفعل الأخلاقي. وهذا مشروعنا تقريبًا، الذي ينبني على إعادة استرجاع قيمة هذه المدرسة التي يظهر فيها التكامل بين الروحي والعقلي والإصلاحي، فهي المدرسة الأقرب إلى روح العصر ومطالب العلاج.

نهوض: تحدَّثتم في كتابكم عن الوصل بين العقل والقلب. إذا كانت بعض الفلسفات الحديثة قد خصَّصت مملكة العقل بالعلم، ومملكة القلب بالأخلاق والشعور، فإنها قد خلقت انفصامًا في الذات الإنسانية بين نظام السلوك الأخلاقي ونظام النظر العقلي والعلمي. كيف يمكن تجاوز هذا الانفصال؟ وهل يُمكن للإسهام الإسلامي الأخلاقي أن يكون ذات صدى عالميّ؟

بلعقروز: لقد فصل العقل العلمي الحديث بين ممكلة العقل التي تجد ماهيتها في التفكير الرياضي والتجريبي، وبين مملكة القلب التي اختزلها هذا العقل في الانفعالات والعواطف، ونسي هذا العقل أن ما اعتبره عقلًا منطقيًّا إن هو إلا أثر من آثار الفعالية القلبية الروحية، فالقلب هو محلٌّ للوعي العقلي وغير العقلي؛ ولهذا قال بليز باسكال (1623-1662م) إن للقلب أدلته المنطقية التي لا يعرف عنها العقل شيئًا. لقد تركت العقلانية الحديثة أمر الأخلاق إلى التفكير العقلي، واعتبرت أن الإلزام هو مسألة عقلية. وكان الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط هو المسؤول عن هذه المنطلقات في صياغتها الفلسفية، فهو نفى

إمكانية أن تتأسَّس الأخلاق على الدين "نفي الميتافيزيقا"، ونفى أيضًا أن يكون للأخلاق دور خارجي اجتماعي أو سياسي، كما عرَّف معنى الدين باعتباره مملكة قلب لا مملكة حياة. وهكذا، فإن فلسفة كانط هي تهيئة لا تقدّر لهذا الانفصال بين العقل والقلب، ثم أصبحت هذه الثنائية المتضادة هي المقدمة المنسيَّة التي تخترق جُلَّ التفكير الفلسفي حول الدين وأساس القيمة. إن المقاربة التي نسير في طريقها تَصْرِفُ السعي إلى أن القلب هو نقطة الانطلاق، والقلب هنا ليس هو تلك اللحمة الصنوبرية المعلَّقة في الجانب الأيسر من الصدر؛ لأنها موجودة عند غير الإنسان، إنما القلب هو تلك اللطيفة الروحانية الربانية، إنه الباب نحو عالم الملكوت، مثلما أن الحواس هي الأبواب نحو عالم الملك أو العالم الواقعي، وهو المحلُّ الذي يحتوي الاستعداد العقلي والاستعداد الأخلاقي، والإرادة هي التي تعمل على إذكاء جمرة الروح كي تتفجر وتنطلق وتظهر، وظهورها هذا إنما يستبين في أفعال العقل والوجدان، ثم تترتب هذه الأفعال في مناهج علمية عقلية ومناهج أخلاقية عملية. إن عقل القلب أو قلب العقل هما ميزة التفكير الإسلامي، فالتفكير العقلاني لا يجد مثاله الأسمى في التفكير المنهجي الرياضي (ديكارت)، ولا في النظام العلمي التجريبي (بيكون)، ولا يبني أساس القيمة الأخلاقية على قانون الواجب المتأثر بفكرة أسطرة العقل، بل يبصر في هذه الجهود مراتب، إذا بدأت بالكثافة الحسيَّة، فستصل إلى اللطافة الروحية، وإن بدأت باللطافة الروحية، فإنها ستتكامل مع الكثافة الحسيَّة، وهكذا. إن إقرار القول بقيمة وأهمية القلب أو الروح قد توصَّلت له العقلانية المعاصرة بخاصةٍ مع إدغار موران (1921-...)، الذي وسم العقل الحديث بالذكورية وكشف حدوده وبيَّن مآزقه، ودعا في المقابل إلى ما سمَّاه بالبُعْد الأنثوي المنسي، البُعْد الذي يظهر في العاطفة والروح والأدب والأسطورة برأيه، أي المعاني التي حذفتها العقلانية الحديثة من معجمها النفسي، بدليل أنها لا عقلانية، وهنا يقول ابن عربي الذي هو أكثر قربًا إلى عصرنا: "المكان الذي لا يؤنَّث لا يُعوَّل عليه"، ومعنى هذه العبارة في منظورنا أن الذات أو العقل المتمركز على الفكر الرياضي أو التجريبي من غير انفتاح على المعاني الروحية اللطيفة هو عقل لا يُعوَّل عليه ومحدود، ويسري هذا القانون أيضًا على بقية المجالات الحياتية، فالنظام الذي لا يُسكِن البُعْد الأنثوي -أي الوجه الآخر من العقل الذكوري- في رؤيته ومنهجه، فسيكون سيره أعرج غير محيط بالحقيقة، والأجدى أن القلب أو الوجدان أو البُعْد الأنثوي بلغة ابن عربي هو منبع الطاقة ووسيلة العلاج في الآن نفسِه.

نهوض: عملتم على الاستفادة من التراث الأخلاقي والروحي والتزكوي الإسلامي، وتقديم مضامينه في ثوب جديد. في ظلِّ ما طرأ على المجتمعات العربية من اختلالات في المرجعية

القيمية، وعولمة الأزمة الأخلاقية المعاصرة وظاهرها المُتعوية والنرجسية، ودور وسائل التواصل وغيرها في زيادة الشتات الذاتي، ما أبرز الخلاصات التربوية التي تقترحونها ركائز في بناء الذات الراشدة والمسؤولة والمؤمنة في هذا العصر المضطرب؟

بلعقروز: كما أشرتم في سؤال آخر، فإن ثمة شقًّا مهمًّا من الممارسة التراثية الإسلامية احتفينا به من غير أبعاد تطبيقية له، وهذا الشق من التراث لم يعرف حضوره التطبيقي بسبب أنه فكر خارج قوانين **"الأخلاق إلى نيقوماخوس"**؛ حيث استلهم في نظامه الأخلاقي القواعد التوجيهية القرآنية أو بلغة فلسفية استلهم المعاني الإيمانية، وأضاف أيضًا التجربة الحيَّة في سيره نحو التخلُّق الأسمى، فكانت الثمرة من هذه التركيبية نشوء خط فلسفي أخلاقي تطبيقي، وتكاملي وشمولي، فالتطبيق هو ضديد المعاني المثالية للأخلاق، والتكاملي يترابط مع التفكير العقلاني، والشمولي يستوعب أبعاد الوجود كلها في الأخلاق (الإنساني والطبيعي)، ويمثِّل هذا المنحى في التفكير: الراغب الأصفهاني والحارث المحاسبي وابن تيمية وابن عربي وابن عطاء الله السكندري وغيرهم، ممن بنى النظام الأخلاقي على دعامة المعاني الإيمانية ودعامة التجربة الحيَّة في التزكية للروح والعقل والجسم، واستطاع هذا النظام أن يرسم مسالكَ في التخلُّق شقَّت عصا الطاعة عن **"الأخلاق إلى نيقوماخوس"**، وأرادت أن تعيش تجربتها العملية في الإبداع؛ ولذلك فإن ثمة علم نفس مضمرًا في جهود هؤلاء، يحتاج منَّا إلى أن نعيد قراءته بما يجيب عن أسئلة الأزمات الراهنة. وإعادة القراءة هذه ليست مجرد تكرار للأقوال، وإنما البحث في المشكلات الراهنة، وتوظيف مناهج وأدوات ومضامين هذه الاتجاهات في تقويمها وتبيين الصالح منها وما انتهت صلاحيته أو خصوصيته. فالواقع الإنساني المعاصر بقدر ما هو يعجّ بالعلوم، بقدر ما يعجّ أيضًا بالمعضلات، ونحن نريد أن نُسهم بذاتيتنا المعرفية في علاج هذه المعضلات والأسقام الملازمة. وإذا تبيَّنت أهمية هذه الاتجاهات الأخلاقية المنسيَّة ومدى الحاجة إلى إعادة بنائها في سياق التحديات المعاصرة، فإننا نكتفي بها ونمضي إلى مطلوبنا في الإشارة إلى أهم الخلاصات التربوية التي من الممكن أن تكون معالم للاسترشاد لأجل ذات يقظة وحيَّة ومُبدِعة:

أولًا: يقظة الذَّات ليست مسألة فكرية أو علمية، بل هي مسألة روحية عقلية، العقل هو أثر من آثار الروح في الإنسان، وجُلُّ الفعاليات الإنسانية هي من أثر هذه الروح أيضًا. وبلغة أخلاقية، فإن العقل استقلَّ عن الروح عندما مال إلى سلطان الهوى، فأصبح في يديه ووسيلة من وسائله التي ظهرت في الفهم العلمي المادي لموضوعات الوجود. ولذا فالواجب هو تحرير العقل والفكر من هذا السلطان، وإعادة تفعيل مسألة التأصيل الروحي للتربية،

التـي توقـظ في الـذات كل الإمكانـات الفكريـة والأخلاقيـة والنفسـية، وتـذكي جـذوة الإيمـان في القلـب؛ لأنهـا وحدهـا القـادرة عـلى التصـدي لإرادة تسـليع العـالم .

ثانيًـا: عـلى علـماء النفـس في العـالم الإسـلامي أن يعيـدوا قـراءة الـتراث الأخلاقـي الموجـود في جهـود المـدارس التـي أشرنـا إليهـا؛ فهـي منبـع غزيـز لأجـل تأسـيس علـوم نفـس جديـدة، تتحـرَّر مـن بعـض العلـوم مثـل التحليـل النفـسي المبنـي عـلى الأسـاطير لا العلـوم، فضـلًا عـن أقـوال أكـثر تجريبيـةً مـن التجربـة النفسـية السـائدة اليـوم، فإضـاءة الـذات وتحريرهـا مـن ضغـوط الدوافـع الحيويـة إنمـا تجـد نماذجهـا الواقعيـة في هـذه النصـوص المكتوبـة بالقلـب والجهـد والألم والصـبر والإحسـان. وعليـه، فـإن الـذي يعالـج المـرضى نفسـيًّا هـو الـذي تحقَّـق بالصحـة النفسـية في ذاتـه أولًا، ومـن ثَـمَّ فرجـال الأخـلاق العمليـون هـم الأطبـاء المؤهلـون للتطبيـب الرُّوحـي للإنسـان، أي إن الحاجـة ليسـت في الدراسـة النفسـية للقيـم، أو أن تصبـح القيـم موضوعًـا للتحليـل النفـسي، وإنمـا نقـوم بقلـب العلاقـة رأسًـا، بـأن تصبـح القيـم -بخاصـة الروحيـة منهـا- هـي الوسـائل التـي تحـرِّر النفـس مـن أمراضهـا، وتحـرِّر التحليـل النفـسي مـن مكبوتاتـه الروحيـة.

ثالثًـا: ثمـة مبحـث لافـت في الممارسـة التربويـة الإسـلامية، هـو أسـلوب كتابـة الوصايـا، فأعتقـد أنهـا تعكـس عصـارة التجربـة في الحيـاة مـن حيـث منهـج الحيـاة ومنهـج التعلُّم، مثـل: **"لفتـة الكبد في نصيحـة الولـد"** لابـن الجـوزي، ورسـالة **"أيهـا الولـد المحـب"** لأبي حامـد الغـزالي، و**"الوصايـا"** لابـن عـربي، و**"النصيحـة الولديـة"** لأبي الوليـد الباجـي الأندلـسي، وغيرهـا. فمضامينهـا ليسـت مجـرَّد توليفـات نصيَّـة، بـل هـي تجربـة حيَّـة في مكاسـب العلـم والأخـلاق، ورجـال التربيـة عندنـا عليهـم أن يعيـدوا قـراءة هـذه الكتـب، لكـن ليـس عـلى طريقـة انتخـاب نصـوص منهـا وجمعهـا، وإنمـا إعـادة تحريرهـا في أسـلوب قصـص طريـف، ثـم اسـتخراج قواعـد وشروط منهـا، تكـون بمثابـة مقدمـات تأسيسـية لعـوالم التربيـة فلسـفة ومنهجًـا وغايـة، فهـذا الجانـب مـن الكتابـة قـد لفَّـه النسـيان، وأحـلَّ محلـه وصايـا مديـري الـشركات التجاريـة التـي توصـف بأنهـا عالميـة، ووصايـا النجـوم والمشـهورين، واللـه فقـط مـن يعلـم سِرَّ نجوميتهـم أو عوامـل شـهرتهم.

إننـا في أمـسِّ الحاجـة إلى هـذه الوصايـا وأسـاليبها، والأدوار موكلـة إلى أهـل التربيـة والتّعليـم، كي تكـون مضامينهـا -كـما قلنـا- مقدمـات معرفيـة ومنهجيـة في مـشروع بنـاء الـذَّات بنـاءً تكامليًّـا، تكـون فيـه القـوة الروحيـة والقـوة العقليـة متسـاندتَيْن في مـشروع تربيـة الإنسـان الخليـق بفعـل الإصـلاح والتجديـد .

مركز نهوض للدراسات والبحوث مركز بحثي يُعنى بقضايا الفكر والواقع، ويرفد الساحة الثقافية العربيّة بمعالجات بحثيّة رصينة لتجديد النظر التاريخي والسياسي والاجتماعي والديني، بما يخدم قضيّة «النهوض» المنشود.

يسعى المركز إلى توسيع فضاء الحوار الحرّ وتعميق النقاشات الفكريّة الجادّة، ملتزماً بأخلاق الاختلاف الإنساني وقيم البحث العلمي الرصين. ويجتهد في استشكال قضايا وأسئلة النهضة الحضارية والعمل على الإجابة عنها، مستثمراً في ذلك مستجدات المعارف العلمية والاجتماعيّة، على نحوٍ يصل بين مضامين الوحيّ وتصوّرات العلوم الإنسانية، ويكفل التفاعل الخلّاق بينهما.

المركز هو أحد المؤسسات التابعة لوقف نهوض لدراسات التنمية، وهو وقف عائلي (عائلة الزميع) تأسس في الكويت بتاريخ الخامس من يونيو من عام 1996م، ويسعى إلى المساهمة في تطوير الخطاب الفكري والثقافي والتنموي بدفعه إلى آفاق ومساحاتٍ جديدة.

مركز نهوض
للدراسات والبحوث

جميع الحقوق محفوظة 2023

All rights reserved © 2023